

لقد سيطرت فكرة النظم عليه وجعلته يوجه البلاغة وجهتها ، واندفع إلى ان ينفي كل مزية للكلام ما لم يكن له تعلق بالنظم ، بل قال ان النظم هو الاساس وان معاني النحو هي المنطلق ، ذلك لأننا قد علمنا علم ضرورة انا لو بقينا الدهر الاطول نصعد ونصوب ونبحث وننقب نبتغي كلمة قد اتصلت بصاحبة لها ولفظة قد انتظمت مع اختها من غير ان نتوخى فيما بينهما معنى من معاني النحو طلبنا ممتنعاً وثنيينا مطايا الفكر ضلعاً . فان كان ههنا من يشك في ذلك ويزعم انه قد علم لاتصال الكلم بعضها ببعض وانتظام الالفاظ بعضها مع بعض معاني غير معاني النحو فاننا نقول : هات فيين لنا تلك المعاني وأرنا مكانها وأهدنا لها فلعلك قد اوتيت علماً قد حجب عنا وفتح لك باب قد اغلق دوننا ^(١) .

وكان هذا الاهتمام العظيم بالنظم وارجاع كل ميزة اليه مدعاة لنقده والقول بأنه تعسف كثيراً في ذلك ، ^(٢) وقد يكون هذا حقاً لو انه أهمل وسائل التعبير الأخرى ووقف عند هذه المسألة ولكنه اشرك الذوق والتأمل ومذاق الحر وف وجمال الالفاظ وان كان هذا الاشتراك غير واضح كل الوضوح لانصرافه إلى تثبيت نظرية النظم والرد على منكريها . ومن المآخذ عليه ايضاً انه « لم يقف عند معاني النحو يبين أسرارها ووجوه جمالها في معظم ما عرضه من الامثلة . فاذا كان قد ذكر فيما جاء به من الامثلة ان النظم هو توخي معاني النحو فانه لم يشرح معنى هذا التوخي ولا سر جماله . واذا كان يريد ان يقنعنا بأن النظم هو توخي معاني النحو وان مراتب البلاغة تتفاضل من أجله فان واجباً عليه ان يرينا سر جمال النظم وان يجعلنا نشعر بحسنه وفضيلته » ^(٣) وليس هناك أكثر مما ذكر من الامثلة وتحليلها والوقوف على جمالها وأسرار نظمها واذا كان قد قصّر احياناً فليس مرجع ذلك إلى وضوحها عنده فحسب وانما يرجع بعض قصوره إلى ان منها ما لا يدرك الا بالذوق ولا يوقف على حسنها وميزتها الا بالتأمل واجالة الفكر واعادة النظر .

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٢٢ .
 (٢) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ص ٢٢١ .
 (٣) عبد القاهر الجرجاني لبدي ص ١١٦ - ١١٧ .